اللغة العربية ومقامها بين اللغات

لمحمد الصاوى عمار

لا يشك منصف فى أن اللغة العربية من أكثر لغات العالم كلما . وأثبتها قدما . وأغزرها مادة . وأقومها جادة . وأصدقها حديثا لما يجول فى الضمائر . وتهجس به الخواطر . وأقواها مجاراة للسان . وموافقة للزمان

لكنها على سعتها وجمالها . وكثرة مفرداتها . وحسن أسلوبها . قد منيت بطائفة من الأدباء يلمزونها، ولا تقع أعينهم منها إلا كما تقع أعين الغربان على الجيف ، فلا يزالون يصورونها بصور بشعة منكرة ، تتأذى بها الأسماع . وتتنفر منها الطباع ، حتى عافها كثير من الناشئين، وانصرفوا عنها إلى فقاقيع من الاوضاع — هى بالعامية أشبه — زينها لهم أولئك الغارون بما ألبسوها من زخرف الالوان وبهرج الادهان، وقدموها اليهم كما يقدم السم فى الدسم. فاذا ما قلبناها وجدناها ألفاظا ميتة لا روح فيها ولا رونق عليها، فلا نكاد نشم منها ريح البيان العربى، وان جاءت فى صوره وأوضاعه ، بل هى الى الرطانة الاعجمية أشبه منها باللغة العربية

وما البيان العربى الحق إلا صور من الشعر الجزل، أو النثر البليغ ، تستحيل اليها نفس الشاعر المطبوع ، أو الناثر الضليع، فى أقصة من الالفاظ ، تكاد تلمسك شبح الموصوف إن كان « من المرئيات » أو تسمعك رنين أوتار قلبك إن كان من « الوجدانيات »

ولئن سألتهم ما الذى تنقمونه على اللغة العربية ليقولن (جمودها وقدمها وعدم مماشاتها للروح العصرية وخلوها من الشعر القصصى (Epique) والتمثيلى (DPAM) وغير ذلك من ألفاظ آلية تتحلب بها أفواههم فى مجال الذود عن بيضتهم والحض على دعوتهم

ويقيننا — ويقين كل من عنده سلامة فى التفكير ، وشىء من الذوق الصحيح — أنه ليس من الانصاف فى شىء أن ترمى اللغة العربية بالقصور ، والجمود عن مسايرة العصور . وهى اللغة الولود التى هيىء لها من ضروب الاشتقاق ما لم يتهيأ لأية لغة فى العالم وهى مع ذلك ثابتة عليه دون أن يفعل فى حروفها بل يقوم فيها بتغيير الحركات التي يتوقف عليها نوع الدلالة . فمثلا مادة (ض ر ب) تتفرع عنها عدة مشتقات مختلفة الدلالة فتقول « ضرب للواقع منه الضرب وضرب للواقع عليه وضرب الجرح أى اشتد ألمه ، وضرب

الله مثلا، أي بين ، وضربت ميعادا أي حددت، وضربت في الارض أي سرت، وضربت القطن أي ندفته، وضربت الدراهم أي صنعتها ، ولو غيرنا حركات هذه المادة فأسكنا حرف الراء منها لنتج الاصل المتضمن معنى الحدث وهو « الضرب » و « الضرب » هو اسم للمطر وهو أيضاً اسم للرجل الخفيف وأيضاً هو صنف من الاشياء ولو فتحنا « الراء » أيضاً لصار « الضرب » وهو اسم للعسل الابيض الغليظ وهكذا إلى آخر ماتدل عليه هذه المادة من المسميات ولو أشبعنا بعض حركات هذه المادة فقلنا مثلا (تضاربوا) لقوم ضرب بعضهم بعضا لايكفينا لاداء هذا المعنى (باللغات الآرية) أقل من أربع كلمات ونجد الانكليزي يقول مالا يقل عن خمس كلمات والفرنسي أو الالماني أو اليوناني أو الروماني بأوجز منه في هذا البيان .

كما أنها من أحفل لغات العالم كلها بالكلمات المترادفة الكثيرة في كل مناحي الحياة والعمران . اذ فيها مئات من الاسماء لمسمى واحد فتقول في (الاسد) (سبع وليث وعضنفر وهزبر ورئبال وحيدرة وقسورة) إلى آخر ماجاء في أسمائه التي جمعها بعضهم في كتاب يربى على المائتي صفحة . ولهذه المناسبة ذكر أن (الخوارزمي) دخل على أحد الولاة مرة في عصره فقال أحد جلسائه (أهذا هو الكلب الذي يتقحم على الملك فأجابه الخوارزمي قائلا (الكلب هو الذي لايعرف للكلب مائة اسم مدحا ومائة اسم ذما و يحفظ مائة قصيدة في مدحه ومثلها في ذمه)(١) يدل بذلك على سعة علمه و بصره بلغة قومه

(١) لا نسلم بنسبة هذه الرواية للخوارزمي واذا كان كاتب المقال نقلها من أحد المصادر فليعرفنا عنه . والذي نعرفه عن هذه الرواية هو أنها منسوبة لابي العلاء المعري وقد وردت في المصادر التي رجعنا اليها بالرواية الآتية :

« دخل أبو العلاء المعري على المرتضى فعثر برجل فقال من هذا الكلب؟ فقال المعرى الكلب من لايعرف للكلب سبعين اسما . وسمعه المرتضى فاستدناه واختبره فوجده عالما مشبعا بالفطنة والذكاء فأقبل عليه اقبالا كثيرا »

راجع « أبو العلاء وماليه ص ١٥٣ » « معجم الادباء لياقوت ج ١ ص ١٦٩ » « بغية الوعاه للسيوطي ص ١٣٦ » « ثمرات الاوراق لابن حجة الحموى » « حياة الحيوان للدميرى » « الصبح المنبي عن غلطات المتنبي ج ٢ ص ٦١ » « نكت الهميان في نكت العميان »

و بهذه المناسبة نقول حبذا لو أن الكاتب أسند كل استشهاداته إلى مصادرها ، و إلا أهملنا كل مايرد لنا منه ، فقد نشرنا له ما نشرنا ، تشجيعا له بعد الحاجه الشديد المتوالى ، فليعذرنا القراء ، ولعله بعد هذا يريحنا قليلا ؟ المحرر

كما أن فيها عشرات من الكلمات المختلفة التي تدل على معان متحدة وبالعكس أي « كلمات متحدة تدل على معان مختلفة » فتقول فى معني « الاعطاء » (وصلته ورفدته ومنحته وحبوته . وخولته وأوليته وأصفيته وسوغته وأتحفته ونفلته وواسيته وجبرته وأنلته وأجريت عليه وأسديت اليه وهكذا إلى آخر ماجاء فى معني (الصلة) وتقول في (الابل) (والغنم) (ورق) كما قال رؤبه

فاغفر خطاياي ونمر (ورقي)

وتقول فى (الاطفال) (ورق) كما قال (هذبة بن الخشرم)

ترى (ورق) الفتيان فينا كأنهم * دراهم منها جائزات وزائف

وتقول فى (الدية) ورق وفى جمع الورقة (ورق)

بل ان فيها كلمات كثيرة تدل علي معنيين متناقضين بلفظ واحد أو متحدة النطق ومختلفة الدلالة أو تصلح (للذم والمدح) وذات (الموصوف) واحدة لم تتغير ـ فتقول (جون) للاسود والأبيض وتقول (كلمتني) أي جرحتني (وكلمتني) أى جرحتني كما تقول أيضا (كل متني) أى ظهرى

تقول هذا (مجاج) النحل تمدحه * وإن ذممت فقل (قيء) الزنابير

مدحا وذما وما جاوزت وصفهما * حسن البيان يرى الظلماء كالنور

ذلك إلي مافيها من ضروب الاعلال . والنحت والابدال وتنوع المجاز والاستعارة . والتشبيه والكناية . مع مراعاة الايجاز والقصد وإصابة الغرض وقوة المنطق . ولطف الاشارة . وحسن العبارة : كل ذلك واضح جلى فى اللغة العربية فى مظهريها النثر والشعر

أنظر إلى الاعرابى الذي وقع أسيرا في يد أعدائه وهو يتجسس عليهم ، فحبسوه وألزموه بكتابة كتاب إلى ـ ملكه ـ يحمله فيه على مداهمتهم ويوهمه بقلة عددهم فكتب مايأتى (أما بعد فقد أحطت علما بالقوم وقد استضعفتهم بالنسبة اليكم ، ورأيت فى أحوالهم مايطيب قلب الملك (نصحت فدع ريبك ودع مهلك والسلام) فلو تأملنا كلمة (استضعفتهم) لرأينا الاعرابي أرادبها (التضعيف)لا (الضعف) أى الزيادة لا الوهن كما لم يرد (بقلب الملك) (فؤاده) وإنما أراد منه قلب حروف جملة (نصحت إلي آخرها) ويقلبها تكون هكذا (كلهم عدو كبير عد فتحصن) ولقد وقع للتميمى الشاعر العربى القديم ماوقع لذلك الاعرابى فكتب إلي قومه مايأتى

حلوا عن الناقة الحمراء واقتعدوا العو د الذى فى جنابى ظهره وقع

إن الذئاب قداخضرت براثنها والناس كلهم بكر اذا شبعوا

ومرذات ليلة عسس أحد الولاة فى الدولة الأموية فعثروا فى طريقهم على ثلاثة من الفتيان يجوسون خلال الديار — وكان الوالى قدأمر ألا يخرج أحد من بيته بعد العشاء وكل من خرج يضرب عنقه — فاستوقفوهم وسألوهم عن نسبهم ومن أى البلادهم فقال أولهم وكان ابن (حجام)

أنا ابن من دانت الرقاب له مابين مخزومها وهاشمها
تأتي الرقاب اليه صاغرة فيأخذ من مالها ومن دمها

وقال الثاني وكان ابن (فوال)

أنا ابن الذي لاينزل الدهر قدره وإن نزلت يوما فسوف تعود
ترى الناس أفواجا الى ضوء ناره فمنهم قيام حولها وقعود

وقال الثالث وكان ابن (حائك)

أنا ابن الذى خاض الصفوف بعزمه وقومها بالسيف حتي استقامت
ركاباه لاتنفك رجلاه عنهما إذا الخيل فى يوم الكريهة ولت

ففهموا أنهم من أشراف قبائل العرب وأن قتلهم يعرض الحكومة للأخطار واستصحبوهم إلى (الوالى) ليرى رأيه فيهم فلما وقف على حقيقتهم أمر باطلاقهم . وكافأهم على حسن بيانهم وهكذا كانت سعة لغتهم . سببا في خلاصهم ونجاتهم

وماإن رأينا ولاسمعنا بأمة من الامم حرصت على تهذيب لغتها . والدقة فى وضعها كالامة العربية فاذا كان قدمها هوالذى يغرينا بهدمها فهاهى ذي (الاهرام) لم يقل أحد بهدمها واستبدالها بغيرها — على طراز جديد — لأنها قديمة بل بالعكس نرى الناس يحرصون عليها و يعدونها مفخرة القدماء

وليس كل قديم بمنبوذ يجب تركه والعدول عنه إلى جديد . فدقيق (القمح) لم نسمع بانه وجد طعام أقدم منه . ومع ذلك نري إجماع الخلق على اتخاذه قوتا لهم كما أن القدم لم يحل الشيء عن طبعه (فالسكر) مثلا لومكث آلاف القرون لم ينقلب (مرا) (والحنظل) لو بقى أبد الدهر لم يصر (زبيبا) يوما ما

على أن اللغة غايتها التفاهم و إيصال مايريده المتكلم أو الكاتب إلى ذهن السامع أو القاريء وهذه كلها أمور مردها إلى الذوق الانساني ومقتضي الفطرة البشرية . فما ذنب اللغة إذا كانت العلة فى الاحساس والتفكير ؟؟!!

كما وأنه ليست (ألفاظها) بصور لأعيان (الموجودات) في الخارج بل هي علامات لصورة الفكر في الذهن فانك لو سمعت لفظ (محمد) مثلا أي رأيته مكتوبا على لوحة لادركت منه ما تدركه لو قدم مصور (صورته) الذهنية واذن فلاقديم ولاجديد في اللغة ودعواهم محض هذيان

ولقد دخلت اللغة العربية في أطوار كثيرة مختلفة الأزمنة والامكنة ومع ذلك فقد سايرت كل فكر . وجارت كل عصر . وخضعت لقوى الابتداع في الكلام . حسب مايقتضيه المقام . وأيضا لم نسمع بكاتب أو شاعر دعا نفسه ـ أودعاه غيره مجددا وإن توخى في أسلوبه أوضاعا لم تكن معروفة قبلا . بل كل ماسمعناه أن يقال (الجماعة البديعية) وهم الذين أدخلوا في كتاباتهم تحاسين (البديع) كمسلم بن الوليد وأبي تمام وابن المعتز وأضرابهم كما يقال (الجماعة الفاضلية) على الذين ينتهجون نهج (القاضي الفاضل) كسراج الدين بن الوراق وأبي الحسين الجزار ومجير الدين بن تميم وألفافهم

حقيقة إن اللغة العربية قعدت عن مسايرة العلم جنبا لجنب لان أهلها لم ينتبهوا للاختراع ، لكن ذلك لا يعيبها إلا عيب والد ترك لابنه ثروة طائلة فلم يحسن استثمارها أو القيام عليها . وماذا على (الطبيب) لو قدم لك (دواء) فلم تستسغ شرابه ؟؟

و بعد فهذه كلمة أتينا فيها على دعوى جمود اللغة العربية وقدمها وسنبيلنا إلى بيان بقية البحث كلمات تتلو إن شاء الله محمد الصاوي عمار مدرس بمدرسة مشال الألزامية

كلمة عن لغة اليمنيين

بقلم الأديب علي أحمد عيسى

كتب أحد حضرات الكتاب بجزء يونيه سنة ١٩٣١ من مجلة المعرفة كلمة من كتاب تحت الطبع يعده لتقديمه إلى مؤتمر المستشرقين بانجلترا .

ولقد أجهدت نفسي كثيرا في محاولة الوصول إلي حقيقة الكتابة المدونة على تلك الالواح مما رواه ناقل الكلمات ، وقارنت بينها و بين التفسير المفهوم فلم أصل إلى نتيجة . وأكبر ظني أن تفسير هذه الكتابات يتعذر على غير أهل اليمن المعاصرين إذ ذاك أو

المتأخرين منهم الواقفين على أصل لهجات بلادهم

أما اللغة التي سمعها الاستاذ بين الركب المتجول الذي مر بقريته منذ سنتين ليؤيد استنتاجه بأن لغة الاحجار المكتشفة باليمن لاتخرج عن ألغاز أوعن لغة الآراميين الدخلاء الذين لم ترسخ قدمهم في العربية . أقول إن هذه اللغة التي سمعها في قريته قد استطعت أن أفهمها فهما جيدا بالرغم من أنها لاتبدو عربية ولا أعجمية وهي في الحقيقة عربية عامية مستعملة بكيفية مضللة للسامع والقارىء . . أما عن تلاؤم رئيس الجماعة وادعائه بأن تلك اللغة يتوارثها الابناء عن الآباء فذلك أيضا لايخرج عن التضليل والقول الهراء . وإليكم الحل الذي توصلت به لفهم تلك اللغة :

يقول الرجل لابنته (اسملى عناب) هاتان الكلمتان تؤديان معني كلمة واحدة هي (اعملى) فهو لم يحدث شيئا سوى حذف حرف العين وهو الثاني في الكلمة ووضع بدلا منه حرف سين للتضليل وكان يستطيع أن يقول من باب التضليل أيضا (اشملى)و(ارملى) (اكلى) الخ وأعقب (اسملى) بأي كلمة خطرت له بشرط أن تبدأ بنفس الحرف الثاني المحذوف من الكلمة الاولي وهو العين فقال (عناب) وكان يستطيع أن يقول من باب التضليل أيضا (عمر) و (عائله) و (عنكبوت)الخ . . . فلفهم (اسملى عناب) يجب إسقاط الكلمة الثانية بعد أخذ أول حرف منها وهو العين ووضعه محل الحرف الثاني الذي جيء به للتضليل بالكلمة الاولي فتكون (اعملى) . .

وعلى هذا النحو نفسر (جهوه قر) في كلام الرجل باسقاط (قر) بعد أخذ القاف أول حرف في الكلمة الاولى فتصير (قهوة) واذن (صلوه حنا) كلمتان تؤديان معني كلمة واحدة هي (حلوه) .

و إننا نلاحظ كيف يعمد الرجل إلى الخداع في حديثه مع ابنته ليسد الطريق على أي محاولة لفهم لغته بتصرفه الغريب إذ يستبدل مرة بالحرف الثاني من الكلمة و يدل عليه باول حرف من كلمة تالية كما في قوله(سان فرفر) و يعني (فان)أو يستبدل الثالث حرف في الكلمة ويدل عليه بأول حرف في الكلمة التالية كقوله (الجيه بابل) و يعني (البيه) أو (واسعتي بالك)و يعني (وابعتي) وهكذا . . .

فلكشف الحقيقة فقط أبعث إليكم بكلمتي هذه . وتفضلوا بقبول وافر الاجلال

على أحمد عيسى طالب بكلية الآداب